القصص

صور من هوميروس

١١ - حروب طَرْوَادَة

أندروماك

للأستاذ دريني خشبة

استطاع نبتيون أن يزلزل قلوب الطرواديين .

وحسبه أن يفر من ميدانهم مارس الجبار ، وأن يفر فى إثره أتباعه آلهة الرَّوْع ، وتينوس ، أصل البلية التى حاقت باليوم ، لينتقل النصر طفرة من جانبهم إلى جانب الهيلانيين

وبرزت شمس اليوم التالى على الساحة الملطخة بآثام الانسانية ، المُضرَّجة بأوزار الآلهة ، المصطخبة بأنين الوغى ... لتشهد من جديد صراع الضغائن وتصاول الأحقاد ، وأخْذَ السخائم بعضها برقاب بعض ، وهذه الكتل البشرية يفنى بعضها بعضاً

واشتد الهيلانيون فى طلب الطرواديين ، واستبسل هؤلاء ، فكانت أمواج الغزاة تتكسر على صخور شجاعتهم ..... ولكنها لا تتلاشى

وعظم الخطب ، ومارت الأرض ، وانعقد رَهَجُ الحرب مما تثير الخيل من هَبَوات ، واشتجرت الهيجاء ، حتى لكأنها قطع من الليل ، وصلصلت الدروع حتى لكأنها عُواء ذئاب الجن ، واستشرى الشر حتى لا ترى إلا إلى منايا وآجال ، فى تتال ونزال . وأحس جنود طروادة بلُغُوب الوغى ، وشعروا بالرجفة تأخذهم من كل جانب ، وكان هكتور العظيم يخطف كالبرق بين صفوفهم يحضهم ويحرضهم ؛ بيد أن الشجاعة لا تغنى فى موقف الموت شيئاً ، فقد شرعت فيالقهم تتقهقر ببطء نحو الأسوار ، حتى إذا بلغوها لبثوا ثمة يُصلون أعداءهم وابلاً من السهام ، تساعدهم الرماة من فوق الأبراج . . .

لكن الهيلانيين ما تفتر لهم همة ، ولا يصل إلى حماستهم كلال ؛ فقد صمدوا فى مواقفهم ، وثبتو وصابروا ، وأبدوا من ضروب البسالة واليأس ما حير ألباب أعدائهم ، وجعلهم إلباً عليهم واحدا ! !

وفى عنفوان المعمعة لقى هيلانوس بن بريام الملك ، أخاه الفوار هكتور يقصف بين الصفوف ويرعد ، ويرغى بين المحاربين الصناديد ويزبد ؛ وكان هيلانوس خير كاشفى الغيب ، وعرّاف الطرواديين ؛ وكان حبيباً إلى الآلهة ، جميل الطلعة ، بسام الثغر ، حتى فى الحرب ؛ وكان إلى ذلك حازماً موفور الحزم ، صارماً شديد البأس ، يقهر الغير على احترامه ولو كانوا يكبرونه سناً ؛ فلما رأى هكتور يعبس تلك العبوسة القمطرير لما يحيق بجنوده من أذى ، ذهب اليه قُدماً وقال :

« أى أخى ! أى هكتور العظيم ! »

وما كاد هكتور يسمع النداء الحبيب حتى هرع إلى أخيه يلتمس فى صدره الحنون برداً لحر تلك الجحيم التى لفحت شجعان طروادة بزفيرها ، وصاح به :

« هيلانوس ! أنت هنا ؟ ادع لنا آلهتك يأيها العزيز ! لقد كَوَّد النصر بعد إذ حسبناه فى أيدينا أمس . . . . ادع لنا آلهتك فقد عيينا بهؤلاء الهيلانيين الأبالسة ! . . . »

ـ « هكتور ! إسمع إلىّ ! لن تظفروا بهؤلاء مادامت مينرفا معهم تؤيدهم ، وتشد أزرهم ، وترد عنهم سهامكم ، فتجعلها فى نحوركم ! ! »

« هكتور ! هلم إلى القصر يا أخى ، فالق والدتك المرزّأة ثمة ، فتوسل اليها أن تذهب من فورها ، مرتدية أبهى ملابسها إلى هيكل مينرفا ، فلتبك عند قدمى تمثالها ، ولتقدم الضحايا ، ولتُقرب القرابين ، ولتحرق البخور المقدس ، المزوج بالأقاويه والصندل وطيوب الهند ؛ ولتنذر أن تذبح اثنتى عشرة بقرة من خير أبقار اليوم ، فتتصدق بلحومها ، وتهب الكهنة شحومها ،

إذا وعدت ربة الحكمة أن ترفع مقتها وغضبها عن طروادة ! »

وألحف هيلانوس على هكتور ، فألقى نظرة على المعركة ، وكاد قلبه يتفطر على هذه الأشلاء التي تسقط هنا وهناك ، وفي كل صوب وحدب ، لاقيةً حتوفها في سبيل إليوم ، وذرف عبرات تذوب حناناً ورحمة ، ثم لوى عنان حصانه إلى البوابة الكبرى ، فدخلها وقلبه يتصدع من الهم ، ووقف مرة أخرى يلقي على الساحة المضطربة نظرة قائد بجنوده جد رحيم . . . . . .

وانطلق إلى القصر الملكي المنيف ذي الشرفات والآكام . .

وهناك . . . . عند بوابة القصر ، وتحت البلوطة الكبرى الوارفة ، اجتمع حول هكتور نسوة كثيرات ، هن أزواج المحاربين البواسل وأخواتهم وبناتهم ، وأمهاتهم كذلك ، ازدحمن حوله يسائلن عن رجالهم ، هل أودى بهم حتف القضاء ؟ وأسقوا نرى الوطن العزيز من دمائهم ، أم مازالون يناضلون الأعداء ، ويردون عن طروادة حمى البلاء ؟ . . . . .

ولكن هكتور يوشك ألا يسمع لهن ، لأنه ينطلق من فوره إلى داخل القصر ، ... وها هو ذا يهرع في أبهائه العظيمة ، ماراً بتلك الغرف الخمسين التي تضم أزواج أبيه وأطفالهن ، ثم بالبهو الأكبر ذي العماد الشامخة ، ثم بالجواسق المذهبة ذات الدُّمى والتماثيل ، حتى يكون عند ردهة الملكة ، فتلمحه أخته الجميلة ذات المفاتن لاؤوديس فتجري اليه ، وتلف ذراعيها حول ساقيه ، فيتخلص منها برفق . . . وتكون والدته قد أحست وجوده فتهرع اليه ، وتهتف به :

« هكتور ! بُنَيَّ ! ما ذا جاء بك هنا ؟ لمن تركت الساحة يا ولدي ! أهكذا تدع أبناء طروادة للموت الأحمر وتجيء إلى الحرم تنشد الراحة يا هكتور ؟ لا . لا . لا أحميك تتخلى عن جنودك لحظة . ولكن هلم إلي ! إليك هذه الكأس من أشهى ما عصر باخوس ! روِّ ظمأك منها وعد إلى الميدان . . . »

بيد أن هكتور يتجهم تجهماً مُغْضَبة ، ويهتف بها :

« أماه ! حاشاي يا أماه ! حاشاي يا أعز الأمهات ! لن تهرق الخمر باسمي ، وتلك دماء إخواني تهرق باسم الوطن وتُراق ! حاشاي يا أماه أن أتذوق قطرة واحدة من تلك الكأس ، وهناك . . . في ضمير المعمعة ، يجرع أبناء طروادة الأعزاء كؤوس المنايا وذوب الحمام ! أريقيها على مذبح ميرفا إذن ! لعلي

٥٠٤٣

ألتمس معك أزواج القادة والمحاربين جميعاً ، فالبسن أبهى ثيابكن الحريرية المفتلة ، وحبركن المفوفة ، وانطلقن إلى هيكل ميرفا ، فصلين لها ، واحرقن البخور الغالي من الآفاويه والصندل أنفر طيوب الهند ، ثم اركعن عند قدمي تمثالها المعبود ، وابكين بكاء طويلاً ، وسبحن باسم إلهة الحكمة ، واغسلن الأرض عندها بدموعكن ، ثم توسلن إليها أن ترفع عن الطرواديين مقتها وغضبها وانذرن أن تقربن ، لو فعلت ، اثنتي عشرة بقرة من خير أبقار إليوم ، يتصدق على الفقراء وأبناء السبيل والمعترين بلحومهن ، وعلى كهنة الهيكل بشحومهن . . .

« أماه ! إنك لم تفعلن كما أخبرتك فلا نصر لنا . . بل لنا الهوان والهزيمة المؤكدة . . وعليك وعلى نساء طروادة السلام من أربابها الكرماء ! . . . »

وصمت هكتور ! واربد وجه هكيوبا !

وانطلق البطل إلى قصر أخيه . . . إلى قصر باريس فوجده يلهو ويلعب ، ولا يأبه بهذه الأرواح الغالية التي تصطرع في الميدان ، فأخذته الحَنْقَة ، وسب عليه شُوَاظ غضبه . . « أنت ! أنت باريس بن پريام ! عجباً وزيوس الأكبر ! أنت هنا تلهو وتلعب ، وتدع ضحاياك تنافح عن آثامك تحت أسوار إليوم ، وتذوق الردى بجريرتك ؟ ! . . . »

وأطلق العنان للخيل ، فذهبت عربته الحربية المطهمة تطوى الطريق إلى الميدان . .

أما أمه فقد جمعت نساء طروادة وجماعة المتوسلات [1] ، وذهبن جميعاً إلى هيكل ميرفا . . . وصَلَّين وبكين ، وغسلن بدموعهن قدمي التمثال المعبود ، ونذرن لآلهة الحكمة ما أمر به هكتور أن يُنذر . . .

ولكن !

لقد أصمت ميرفا أذنيها ! ولم تُصغ لهذه التوسلات المكلومة ، ولم ترق لتلك العبارات المسفوحة ، ولم تطمع أبداً في ضحايا وقرابين تكفر عن خطيئات باريس ؛ ذلك الراعي المفتون الذي آثر الجمال الفاني على الحكمة الخالدة ، فقضى في التفاحة لفينوس ، ربة الحسن والحب ، تلك الحية الرقطاء التي لدغت

(١) Suppliants وقد نظم فيهن كل من اسخيلوس ويوريبدز إحدى دراماتهما الخالدة

طروادة بأسرها ، فهي إلى اليوم تصرخ من سمها الزعاف يسري في أرواح أبنائها ، فينكل بهم ، ويكاد يقضي عليهم . . . ولا ذنب لهم ولا جريرة ، إلا لبانات الهوى الآثم ، والغرام الشائن ، والحب المجرم المهين ! !

* * *

وأحس هكتور وهو منطلق إلى الميدان كأن منيته تنوشه من مكان بعيد ، وأحس في صميمه بشوق حار إلى لقاء أندروماك ، زوجه العزيزة عليه ، الأثيرة إلى قلبه ، شوقاً يشبه وداع الحياة في حرارته وأسره ، وشوقاً يشبه الاستمتاعة الأخيرة من مباهج هذه الدنيا . . . في حزنه الصامت ، ومعناه العميق !

وأحس كذلك بلوعة الى التزود بنظرات من سكمندريوس طفله الحبيب ؛ هذه الهبة السماوية التي توشك أن تصبح نقمة من نقمات اليتم ، اذا كان صحيحاً هذا الهاجس الذي وقر في قلب هكتور ، والذي صور له أنه مقتول اليوم لا محالة . . .

وألح الشوق على قلب البطل ، فثني عنان الخيل إلى الطريق المؤدية الى قصره المرد ، ليشفي حاجات الفؤاد المعذب

وذهب من توه إلى مخدع أندروماك ! ولكنه لم يجدها هنالك ، فبحث عنها في الغرف والردهات والأبهاء ، ولكنه عبثاً حاول الوقوف لها على أثر !

وسأل عنها حشم القصر ، وكان صدره يعلو ويهبط حين كن يتحدثن إليه عن أندروماك العزيزة وما تلقاه دائماً من القلق ، وما تتفزع به روحها من الهواجس مادام زوجها يخوض خبار هذه الحرب !

فهل هي من الأرض الثقيلة المخضبة بالدماء هذه العواطف المشتركة ، أم هي من السماء الصافية التي لا يرتفع إليها تغلل ، ولا يورى فيها زند عداء ، ولا تشب فيها سخيمة ؟ !

وأخبرته أنها يممت شطر برج طروادة الرفيع ، تشهد منه ما يحدث في المعركة من أهوال ، وذلك عند ما ترامت الأخبار أن الأغريق قد ضيقوا الحصار على جنود طروادة ، وأنهم خضدوا شوكتهم ، وفلجوا عليهم ، ونخبوا قلوبهم ، وضعضعوا أركانهم . . . فريعت أندروماك ، وذهبت من فورها إلى البرج لتطمئن على رجلها وذخر حياتها ، وسندها في هذه الحياة السوداء

ونهد هكتور إلى البرج ، فلقيته أندروماك بعينين مغرورقتين ووجه شاحب وجبين مفضن ، وصدر ينوء بما فوقه من الهموم

كانت تقف ابنة إيتيون ، الجميلة البارعة ، وعلى ذراعها المرمري الفاتن طفلها الرضيع الشاحب ، الذي حل بهذه الدنيا الهازلة ليكون عبرة سخينة من عبرات الحزن القاهر ، ثم ليكون مأساة وحده حين تضع هذه الحرب الضروس أوزارها ، وحين يشب فلا يرى حوله إلا الباكين والمحزونين ، وإلا هذه المدينة الكاسفة التي تعصف بها آلهة الحرب ، من غير ما شفقة ولا مرحمة !

وتعلقت أندروماك بذراعي زوجها ، وشرعت تنظر في عينيه المبللتين ، وتقول له :

« هكتور ! رَجُلي وذخري من هذه الحياة ! الى أين أيها الحبيب ؟ أما لهذه الحرب الطاحنة من نهاية ؟ أهكذا قضت الآلهة على طروادة الخالدة بالحزن الأبدي والأسى المقيم ؟ هكتور ألا تفكر في سلم يرفرف على ربوع الوطن ، ويبقى على هذا الشباب الذي تعصف به ريح الحرب ؟

رَجُلي !

إن آلافاً من الهواجس السوداء تضغط على قلبي تحدثه بالعُقبَى الوخيمة ، والأيام الباكية القريبة !

هكتور ؟

هذه أشباح القتلى الأعزاء من بني وطني تحدثني عن مأساة أبي ، واخوتي السبعة ، والمئين من أهلي ، قتلهم أخيل الجبار بيده السفاحة وجعل من جثثهم كومة عالية تقص على القرون تاريخنا الحزين !

لقد هرعوا جميعاً إلى هذه الساحة من سيليسيا ، ملبين نداء الملك ، الملك التاعس ، أبي ، الذي سعى إلى طروادة لينام أبد الدهر في ظل أسوارها نومةً غير قريرة ولا هانئة . . .

هكتور !

لقد نام أعز الآباء في تراب ساحتكم دفاعاً عن مدينتكم ، ولكن المأساة لم تتم بقتله وقتل أبنائه والمئين الأعزاء من بني جلدته ، ولكن المأساة أبت إلا تكون أمي . . . آه يا أمي العزيزة ! أن تكون هذه الأم صفحة محلولكة من صفحاتها التي تفجر الدم في القلب ، وتضرم النار في الحشا !

لقد ساقها أخيل يا هكتور في جملة السبي ، ولولا القيود

الكبير ، والفدية الغالية التي بذلناها من أجلها ، لكانت إلى اليوم ، لو مد في أجلها ، إحدى خادمات الأعداء الذليلات ، اللواتي لا علك لمن في هذا الأسار عزة ، ولا يقدر لها أحد شأناً ! لكنها سقطت هناك ، في هامش هذه الساحة الظالمة ، ضحية سهم مراش من قوس الالهة ديان ، فكأنما رفضت أن ترفع كأس هذه الحياة إلى فمها النقي الطاهر . بعد إذ لوثته أحداث الدهر بذل الأسار ! !

هكتور ! !

كل هذه النوازل هدت نفسي ، وحطمت قلبي ، وأثلجت مشاعري ، وجعلتني بائسةً تاعسة موهونةً لا حول لي . . . لولا أنك إلى جانبي تأسو جراحي وتؤنس وحشتي ، وتشيع نوراً متلألئاً في ظلمات حياتي . . . ! فأنت لي اليوم أب نعم الأب ؛ وأنت لي في وحدتي بقلبك الحنون أم نعم الأم ، وأنت لي أخ ، بل أنت لي كل شيء في هذه الدنيا !

هكتور !

إبق إلى جانبي فأنا لا أستغني عنك بأب أو أم أو أخ ، أو بمملكة يزين مفرق تاجها المشرق ، ولا يشد يميني صولجانها الرنان !

إبق إلى جانبي يا هكتور !

إبق إلى جانبي وارع هذا الطفل ، ولا تسلمه وتسلمني لليتم والشقاء

هكتور !

إن المستقبل يحبس من اليوم لولدك سكندريوس ؛ فرده عنه ، وادفع عاديات الزمان من الآن عن فلذة كبدك ، وحبة قلبك ، واستشعر نحوه حنان الأب الرحيم ، ولوعة الأم المفئودة !

« . . . . . »

وخنقتها عبرة حجبت عن ناظريها نور الحياة ، وحبس منطقها كمد ممض ، وحزن أليم ؛ ووقف هكتور مبهوتاً لا يحير ، ينظر اليها مرة ، وإلى ولده أخرى ، ثم يلقي على طروادة نظرات . . .

واستيقظ بطل اليوم من غفوته الصاخبة ، وانطلق لسانه من عقاله يقول :

« أندروماك ! أيتها الحبيبة ! إسمعي إلي ! »

لا تخالي يا أعز الناس إلى أن قلبي قد تحجر فلم يخفق لكل ما ذكرته من قبل ! لا ! لقد خفق كثيراً بمثل هذه الهواجس ! بل هو قد ذكرك ، وقد تصور أن هكتور مقتول ، وكأنك كما ذكرت عن أمك في جملة السبي ، وأنك تؤوبين مع أحد القادة الهيلانيين إلى هيلاس ! وأن القائد الغليظ قد ضمك الى حريمه ، أو بالغ في الايذاء فجعلك احدى سراريه أو خدمه ، كما مر بك أحد أشار اليك بالبنان : « مسكينة ! هذه زوجة هكتور فتى طروادة ، وابن ملكها المقدام ، البطل الذي سفك الدماء وسعر الهيجاء ، تعمل هنا اليوم خادمة ذليلة ، كسيرة القلب ، مهيضة الجناح ، تأتمر بأمر السفلة والأخساء !

لا يا أندروماك ! لقد ذكرت ذلك جميعاً ، ومن أجل هذا فأنا لهذه الحرب ، وأنا لهؤلاء الأعداء ! سأحطمهم ! سأدك الأرض من تحتهم ! سأسقط السماء عليهم كسفاً . . . ! من أجلك ! من أجلك يا أندروماك ! لا . . لا . . بل من أجلك يا طروادة . . . ! يا وطني ! يا بلادي ! . . . »

وسكت فتى طروادة قليلاً ، ثم ذكر المعركة وما يدور فيها ، فتقدم الى زوجه فطبع على جبينها قبلة كلها هموم : ومديده يريد أن يأخذ سكندريوس فيداعبه أو يودعه ؛ ولكن الطفل صرخ مروعاً من هذه القبعة النحاسية المذهبة التي تحمي مفرق أبيه ! وابتسم والداه ، برغم حزنهما ، ورفع هكتور القبعة وألقاها على الأرض المعشوشبة ، وتناول الطفل فأرقصه قليلاً حتى انفرجت شفتاه عن ضحكة عالية ، ولثمه كما تلثم العاصفة فتناً وارفاً فتلفحه ، ودفع به الى حضن أمه

وانطلق يطوى الطريق الى المعمعة ! . . .

(لها بقية)

دريني خشبة

الطالع العام

كتاب المرشد الظريف في طالع الجنس اللطيف يتضمن ٣٥٢٠ جواباً على ٢٢٠ سؤالا عن الماضي والحاضر والمستقبل لجميع الناس مهما كانت أعمارهم ومراكزهم فالى العذارى الغانيات والزوجات الطاهرات والوالدات الحنونات وربات البيوت المدبرات ، والنساء الغاويات والشبان والرجال نقدم هذا الكتاب من قلم الأستاذ حنا أسعد فهمي المحامي من باريس وثمنه ١٢ قرشاً صاغا والبريد قرشان ويطلب من مكتبة العرب الشهيرة بشارع الفجالة رقم ٤٧ بمصر تليفون ٥٦٠٢٥

٢ـ رحلة الى حدود مصر الغربية

مرسى مطروح ، سيوه ، السلوم

للأستاذ الرحالة محمد ثابت

أقلتني سيارة برفقة الأخ النبيل الكريم حسن حشمت ، من خيرة الشبان وأكفأ ضباط الحدود ، وطفنا بكثير من البساتين والينابيع ، وهي عماد موارد الواحة وخير ما يميزها ، تنتثر في أطرافها في عدد لا حصر له ، وحولها تقوم غابات النخيل تتخللها أشجار الفاكهة ، أخص بالذكر منها الكروم والزيتون ، ثم الرمان والتفاح والبرقوق والموالح ، على أن البساتين تفتقر إلى عناية كبيرة من أهلها ، فهي مهملة إلى حد كبير ، إذ تغص أرضها بالطفيليات ، وتزدحم بالأشجار المتجاورة ، مما يؤثر ولاشك في مقدار انتاجها عاماً بعد عام . ويخيل إليّ أن الناس هناك أميل إلى الكسل ، إذ كنا نرى ماء الينابيع المتفجرة يجري على غير هدى ، ويؤدي بعضه إلى مستنقعات فسيحة هائلة بعضها يبدو كالملاحات المديدة . نرى كتل الملح الأبيض الوضاء تكسو جوانبه إلى مد البصر ، ولقد حاولت وزارة الزراعة إصلاح تلك الأراضي وحث الناس على استغلالها بطريقة أنجع من طريقتهم الحالية في الحرث وتعهد الأرض ، وكذلك في الاستفادة بذلك الماء الوفير الذي يضيع سدى ، ولقد قامت وزارة الزراعة هناك بمجهود يشكر في توزيع أشجار الزيتون والخروب على الناس مجاناً ، وفي الاحتفاظ بمياه الينابيع فأقامت حول كل عين أحواضاً كبيرة من البناء تؤدي منها المجاري الصغيرة إلى مختلف النواحي ، بحيث تشمر وأنت تجوب أطراف الواحة من كثرة القنوات وتقاطعها وتشعبها أنك وسط قطر زراعي ممتاز ، لكن رغم ذلك يضيع جانب كبير من ذلك الماء سدى ، ولقد ساعدت تلك القنوات على تجفيف كثير من المستنقعات التي كانت مرعى خصباً لبعوض الملاريا الذي كان يفتك بالناس فتكا ذريعاً ، وهي تبث في تلك المياه نوعاً من السمك الصغير الذي يعيش على يرقات ذلك البعوض استئصالاً له . ولقد زرنا مصنع وزارة الزراعة الذي أقامته لاستغلال أكبر مواردين للناس هناك : البلح والزيتون ؛ وهي تبتاع من الأهلين جانباً كبيرا من أجود أنواع البلح ، وتخضعه لعملية الغسيل والتطهير والتبخير ، ثم الكبس في صناديق من خشب تبطن بالورق المقيل ، وتصدر منه بين ٢٠٠٠ و ٤٠٠٠ طن في العام ؛ وفي جانب من المصنع معصرة آلية للزيتون بكامل معداتها ، يعصر فيها الزيتون وينقى الزيت بعدة عمليات ، ثم يوضع في صفائح ويصدر ؛ وانتاج المصنع آخذ في الزيادة ، ولذلك تفكر الوزارة في توسيعه باطراد . وللأهلين كثير من المعاصر الخاصة للزيت ومساطح البلح الذي يعدون منه (العجوة) السيوى الشهيرة ؛ أما باقي أنواع الفاكهة فلا يكادون يستفيدون منه تجارياً ، حتى البيع لأهل الواحة نفسها غير مباح ، ذلك لأن المالك يعد بيع الثمار للناس معرة لا تليق بكرامته ، ولكل انسان أن يدخل البساتين ويأكل منها ما يشاء بدون مقابل ، ولكن ليس له أن يحمل إلى الخارج شيئاً منها إلا في حالات خاصة ، عندما يريد المالك تقديم الهدايا من ثمار حديقته لبعض ذوي المكانة والجاه من الغرباء أو الأهلين . ولم أدرك من صنوف الثمار شيئاً ، اللهم إلا أردأ أنواع البلح هنالك ويسمونه البلح الفراوى ، أما البلح الممتاز المسمى الصعيدى ، والذي يليه جودة الفريحى فلا يزال فجاً غير ناضج

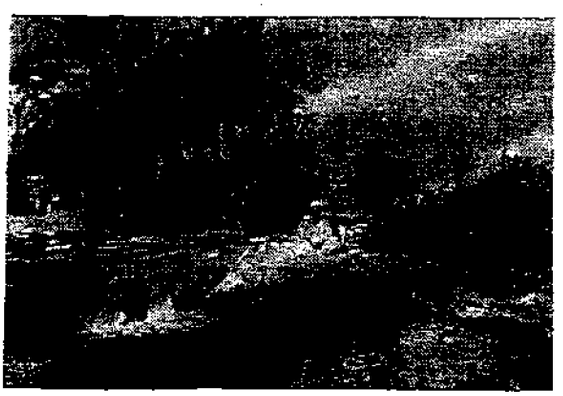

عين ناجرزت من أكبر ينابيع سيوه

أذكر أنا دخلنا بستاناً وتفيأنا بشجرة ، وكانت الأرض تحت النخيل يكاد يفرشها ذاك البلح الردئ (الفراوى) فطلب الأخ حشمت إلى الرجل أن يذيقنا أطيب ذاك البلح ، فاعتلى

الرجل النخلة وهن عرجونها ، فأمطرتنا وابلاً من رطب أصفر كبير ، فأقبلنا نتقى منه أطيبه ونغسله فى ماء النبع حولنا ونأكله ، فكان لذيذاً شهياً ، وما كدت أمتدحه حتى سارع الرجل بالاعتذار بأن الأنواع الجيدة لما تنضج بعد ، وأن هذا النوع الذى تأكله غير جدير بنا ، لأنه عندهم طعام الحمير ! وقد علمت أنهم حقاً يقدمونه علفاً للحمير ، والنوى تأكله المعزى

وأكبر عيون الواحة عين قريشت التى تبعد عنها بنحو عشرين ك . م ، ثم عين ناخورت التى تنفجر بقوة هائلة ويتدفق منها ٤٠٠٠ طن يومياً يضيع جله فى متسعات الملاحة بالبحر ؛ ثم عين الشفا ، وتقول خرافة قديمة إنها كانت متصلة بالجن ، خاضعة لعبثهم ، ثم اكتسبت هبة سحرية هى شفاء الأمراض كافة ، لذلك يكاد يغتسل فيها الناس جميعاً كل يوم ، فالنساء يقمن مبكرات ويغسلن أجسادهن دون رءوسهن احتفاظاً بجمال الشعر أخر آيات تجملهن ، ثم يعقبهن فى ساعة متأخرة الرجال ؛ والعين التى يستقى منها الناس جميعاً عين تابه أمام مركز البوليس ؛ وكم كان يروقنى منظر الناس وبخاصة النساء وهن يردن تلك العين فى بكرة الصباح وعند الأصيل بملأن جرارهن ! هذه سيوية فى نصف سفور ، وقد ارتدت جلباباً فضفاضا من قماش يغلب على نقوشه التخطيط الأزرق ، وقد ضفرت شعرها فى جدائل متعددة ، بعضها يتدلى إلى جانبى الرأس والبعض أمامها ؛ وتنتهى الجدائل الخلفية بقطع من جلد خشن كان سبباً فى أنهن لا يستطعن النوم على ظهورهن أبدا ، وتزين أذنيها أقراط ثلاثة ، فى أسفل الأذن فى طوق كبير يعلوه فى وسط الأذن واحد أصغر منه ، ثم يعلو هذا ثالث هو دونه حجما ، وتكاد تكسو رقبتها أطواق من الفضة بعضها خارج بعض ، وهؤلاء لا يغسلن رءوسهن إلا فى فترات بعيدة تعد بالأعوام ، وبعضهن لم يغسلنها منذ نشأن ، وذلك خشية افساد زينة الرأس ، وهن كل أسبوع يتعهدن الشعر ببعض الزيوت والأعطار ، ويخيل إلىّ أن سبب تلك العادة سقوط الشعر من أثر أملاح مياه الينابيع مما نفرهن من غسله فأصبحت عادة فيهن

والسيويات جميلات الوجوه بألوانهن الحمرة وتقاطيعهن الدقيقة النحيلة . وإلى جانب السيوية كنت أرى عربية ازينت بجلبابها الأحمر ، وأحاطت خصرها بحزام معوج من الأمام ، وكانت تهولنى أكمامها الكبيرة ، ولقد خبرنى الطبيب بأنه عند الكشف على إحداهن يلاتضطر السيدة أن تخلع ثوبها ويكفى أن ترفع ذراعها فيظهر كل جسدها من كمها

سيوية ترد ماء نبع فى سيوه ويشاهد فى وجهها الجمال الغربى

وللقوم لغتهم السيوية الخاصة ، كنت أستمع إليها فى رطانة هى أبعد من اللهجات الأوربية عنا ، وقد حاولت أن أتعقب فى كلماتها شيئاً يمت إلى العربية أو اللاتينية بصلة فلم أهتد إلى كلمة واحدة ؛ وهم يتخاطبون بها دائماً ، لكنهم إذا تحدثوا إلى الغريب تكلموا بالعربية ، وأطفالهم لا يعرفون إلا اللغة السيوية . واليك أمثلة من تلك اللغة : تلحاك أنك (كيف حالك ؟) ، أمقحاط : (أين تذهب ؟) ، سقم أنا سيط : (من أين تجيء ؟) ، أفتك اللون : (افتح الشباك) أفّن شاشنّك أخشفنّك (ألبس الطاقية على رأسك) أفن شخشيرك فى أشكنّك (البس الجورب فى رجلك) أشوّ (الطعام) الخ . وما إلى تلك الألفاظ التى تمعن فى الغرابة بالنسبة للغتنا ، وحتى أسماؤهم تجد من بينها عجباً مثل : تلشلشت ، زوبّاى ، بيّخ . ولهم تدليل خاص لبعض أسمائنا فمثلاً ينادون : أبا بكر باسم كاكال ، ابراهيم باسم بابى ، أحمد باسم حيدة ؛ ويقال إن أصل تلك اللغة بربرى ما زجتها العربية ثم الرومانية . ولا تزال للرومان هنالك بعض الآثار ، أشهرها معبد المشترى (جوبتر أمون) ، وكان مقر الكهنة ذرعه ٣٦٠ × ٣٠٠ قدم ، ومن أحجاره ما يبلغ ٣٣ × ٢٦ قدماً ، وقد زاره الاسكندر بعد أن قاسى المتاعب الممضة وبعد أن نضب ماؤه وأشرف على الهلاك لولا أن سقط المطر فأنجاه هو

ورجاله . وكان يقوم فى هذا المعبد صنم اسمه سيوح هو الذى أكسب الواحة اسمها ؛ وقد زرت هذا المعبد وألفيته فى حال يرثى لها ، فأنت لا تكاد تجد به حجراً قائماً على أصله وذلك من أثر أحد المأمورين الذين رأوا فى أحجاره مادة صالحة لأقامة مركز البوليس ، فقام يهدم المعبد ويستخدم أحجاره فيما أراد ، والمفروض أنه من مثقفى القوم ومن الذين يعرفون قيمة الاحتفاظ بمثل تلك الآثار الجليلة ، وهو لا يزال مأموراً إلى اليوم فى ناحيــة أخرى من مراكز الحدود ؛ عفا الله عنه وكفر له عن سيئته.

ويقال إن تلك الواحة كانت تسمى عند العرب (سنتريه) ، بناها صنافيوس مؤسس بلدة أخميم ، أقامها من حجر أبيض وشيد وسطها تلعباً من سبع طبقات وعليه قبة من خشب على عمد من رخام ، وكانت كل طبقة لطائفة من الناس على حسب مكانتهم ؛ على أنى لم أجد لكل هذا أية بقية أو أثر . وقد حاول قمبيز تدميرها وهدم معبد أمون الذى بها فهلك جيشه العظيم فى طريقه اليها . ولقد زاد ذلك فى قدسيتها لأنهم عزوا ذلك إلى غضب الآلهة ، ولم تدخل تلك الواحة تحت حكم مصر إلا فى عهد المغفور له محمد على باشا حين أرسل اليها حسن بك الشماشرجى ، حاكم البحيرة إذ ذاك ، فأخضعها وتعهد بها عرب أولاد على إلى زمن سعيد باشا ثم ضمت لمديرية البحيرة ، وهم يؤدون ضريبة النخيل للحكومة ، وكان مجموعها زهاء ٨٠٠ جنيــه وزعت على عدد النخيل الجيد الذى يثمر البلح الصعيدى ، تخص كل نخلة نحو تسعة مليمات ضريبة تدفع للدولة كل عام ؛ ويكاد يكون لهم نظام حكم خاص بهم فالحكومة تكل أمرهم إلى المشايخ وعددهم سبعة يتقاضون مرتبات تتراوح بين جنيهين وأربعة كل شهر ، وهؤلاء هم الوسطاء بين الدولة وبين الأهلين ؛ وعند انتخابهم يجتمع أعيان الواحة ممن تزيد ملكيتهم على مائة نخلة وينتخبون الشيخ ولا تقل أملاكه عن ٢٥٠ نخلة ؛ وغالب منازعاتهم تحل بطريق التحكيم فيختار كل من الخصمين رجلين يوكل اليهما الأمر وقضاؤهما نافذ بعد عرضه على المأمور ، وأساس تشريعهم القواعد التى وضعها لهم عالم اسمه محمد يوسف ، وتكاد تكون وفق تقاليدهم الخاصة ، إلا فى الزواج والميراث فهم خاضعون لقضائنا . وعدد سكان الواحة يقرب من خمسة آلاف ليس بينهم مسيحى واحد ؛ ويقولون إن أربعين رجلاً من العرب والبربر وقبيلة أغورى وفدوا إلى تلك البقعة وأقاموا لهم معصرة ودونوا أسماءهم فى سجلاتهم ، ثم تكاثر نسلهم حتى بلغ هذا العدد ومن لا ينتمى إلى واحد من أولئك الأربعين يعد دخيلاً عليهم

وطبقة العمال هناك يسمون الزجالة أو الزجالين ، يزيد عددهم على الخمسمائة ، وهم الذين يقومون بخدمة الأرض نظير قيام السيد بمؤنتهم الضرورية ، ولكل خادم جبة من صوف وثوب من قماش كل عام ، وعنــد جمع المحصول يتسلم الواحد ٣٢ صاعا من الحب وأربعين من البلح الصعيدى الجيد . وتلك الطائفة كبيرة العــدد مفتولة السواعد ممتلئة الجسوم ، ممنوع أفرادها من الزواج مخافة أن يزيد نسلهم فتزيد النفقة على سيدهم ، ومن تزوج منهم طرده سيده وتخلص منه ؛ وهذا لا شك من أسباب قلة النسل فى الواحة كلها ، وقد أخذ ذلك يهدد السكان بالانقراض ، فضلاً عن أنه ساعد على انتشار الفساد إلى درجة كبيرة

(يتبع) .

محمد ثابت

لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩١٤

أتمت لجنة التأليف والترجمة والنشر طبع كتاب :

المختـــار

للأستاذ عبد العزيز البشرى

وهذا الجزء ينتظم ثلاثة أبواب :

الباب الأول باب الأدب ، والثانى باب الوصف ، والثالث باب التراجم

وقد طبع طبعاً أنيقاً مضبوطاً كثير من لفظه بالشكل مفسراً ما يقع فيــه من غريب وذلك على ورق صقيل — وحلى فوق هذا بصور فاخرة ، وغلف بغلاف بديع ثمين — وثمن هذا الجزء خمسة عشر قرشاً صاغاً عدا أجرة البريد

ويطلب من اللجنه بشارع الكردانى نمرة ٩

ومن المكاتب الشهيرة